

مساهمة البربر في نجاح المنصور بن أبي عامر في الأندلس

د. سي عبد القادر عمر

جامعة ابي بكر بلقايد/ تلمسان

الملخص:

بعد انهيار الدولة الأموية في المشرق تمكن شاب من بني أمية من الفرار الى الأندلس و احياء ملك بني امية ،وقد مرت هذه الدولة بمرحلتين الإمارة و الخلافة و أثناء المرحلة الثانية ظهرت شخصية الحاجب بن أبي عامر الذي تسلط على الحكم رغم استمرار الخلافة ،وعرف الأندلس في عهد هذه الأسرة تطورا وازدهارا في جميع المجالات ،وقد كان للبربر دور بارز في نجاحه و تحقيق هذا الرقي .

After the decline of the zomayad's state in the orient,a young men from the zomayad's citizens had secceded to escape to Andalus and rivivals the monarch of the zomayad .This state hadpassedthroughtwoperiods of imarate and kingdom ,and durring the second period ,a personalitycalled « al hadjib ben abi amer » hademerged and hadrulling on gouvernance in spite of the contuniation of the kingdom. Andalusdurring this family had witnessed a flourishing in every fields ,and Berbers had played an important role in this development.

الكلمات المفتاحية: الأندلس/ البربر/ بني أمية/ بلاد المغرب/ الأسرة العامرية

مقدمة

بعد نجاح المسلمون في فتح بلاد المغرب و انتشار الدين الإسلامي في جل أرجائه ، تطلّعوا لفتح بلاد الأندلس خاصة وأن هذه الأخيرة لا يفصلها عن بلاد المغرب إلا مضيق جبل طارق، وقد تم ذلك في عهد موسى بن نصير و طارق بن زياد، وفي عهد عبد العزيز بن موسى أستكمل فتح ما بقي من أرض الأندلس لتتحول الى ولاية إسلامية تابعة للخلافة الأموية بدمشق . لقد تولى إمارة الأندلس حوالي عشرين ولية في فترة قاربت نصف قرن من الزمن ، وفي هذه المرحلة كان الأميريّين من طرف أمير افريقية في أغلب الأحيان و من طرف الخليفة في حالات استثنائية و البعض الآخر فرضهم الجنود المقيمون في الأندلس . وتميزت أوضاع الأندلس في أواخر عصر الولاة بالفوضى و انتشار الفتن و الحروب فاشتدت الانقسامات القبلية و العنصرية ، مما شجع النصارى على التوسع و استرداد بعض المناطق في شمال و غرب الأندلس .

وفي هذا الوقت تدهورت أوضاع الدولة الأموية في المشرق و قامت مقامها الدولة العباسية سنة 132هـ/750م ، ونظرا للمعاملة القاسية من طرف العباسيين لبني أمية فقد تفرق معظمهم في أقطار مختلفة خوفا من بطش العباسيين ، وكان من الذين نجو من سيوف بني العباس أمير شاب من بني أمية تمكن من الفرار الى بلاد المغرب و هو عبد الرحمان بن معاوية ، الذي استقر في الأندلس سنة 138هـ/756م حيث دخل قرطبة بعد معركة المصارة مع يوسف الفهري والي الأندلس و يتمكن من تحويل الأندلس الى إمارة أموية وراثية مستقلة عن الخلافة العباسية ببغداد⁽¹⁾ . قضى عبد الرحمان الداخل في الحكم ثلاثة وثلاثين سنة واجه من خلالها مجموعة من الثورات الداخلية و المؤامرات الخارجية ، ليتمكن من تثبيت دعائم دولة قوية مستقرة بفضل ما تحقّق من إنجازات سياسية و عسكرية و حضارية ، وتوفي سنة 172هـ/788م و هو في الثامنة و الخمسين من عمره.

تولى الحكم بعد عبد الرحمان عدد من الأمراء ، منهم ابنه هشام ثم الحكم ثم عبد الرحمان بن الحكم الذي يعرف بالأوسط ، وبعده مرت الإمارة بمرحلة من الضعف و التراجع و الانقسام بعد أن استقل عدد من الولاة بأقاليمهم و أطلق على هذه المرحلة بعهد الطوائف الأول⁽²⁾ .

وفي ظل هذه الظروف ظهر قائد أموي بارز أعاد للأندلس مجدها وقوتها و هو عبد الرحمان الثالث، تولى الحكم وهو في الثالثة و العشرين من عمره سنة 300هـ/918م ، وقد حكم خمسين عاما، تميز عهده في البداية باستمرار الفتن و الثورات و بفضل حنكته تمكن من القضاء على كل الصعاب و الثورات و أهمها ثورة بني الحجاج باشبيلية و ثورة عمر بن حفصون .

وعندما استتب الأمن لعبد الرحمان الناصر بعد أن وحد أقاليم الأندلس أقدم على تغيير لقب الإمارة بالخلافة سنة 316هـ/929م، و من العوامل التي شجعت على هذا التحول ، ضعف الخلافة العباسية في المشرق، و اتساع ملك عبد الرحمان الناصر و توحيد الأندلس، قيام خلافة شيعية معادية للدولة الأموية و العباسية و هي الخلافة الفاطمية ، الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن تكون لهم خلافة للمسلمين⁽³⁾ .

وقد تميز عهد عبد الرحمان الناصر بالإنجازات الكثيرة العسكرية و السياسية و الحضارية حيث نقل الأندلس من الوضعية المتدهورة الى وضعية مستقرة و مزدهرة مما جعل الكثير يرون أن عهده كان من أزهى

عهد الأندلس. وبعد وفاة الناصر سنة 350هـ/ 961م خلفه ابنه الحكم الثاني الذي سار على نهج أبيه في مواجهة النصارى و التصدي للفاطميين و الأدارسة في بلاد المغرب ، و بموته سنة 366هـ 1009م انتهى آخر العظماء من بني أمية في الأندلس⁽⁴⁾.

لقد ترك الحكم ابنه هشام طفل صغير مما أدى الى ظهور صراع بين أطراف الحكم خاصة بين كبار الصقالبة و الحجاب ، وقد كان لصبح زوجة الحكم دور بارز في ترجيح كفة الحجاب ، وهذا ما فسح المجال أمام المنصور بن أبي عامر الذي تمكن من فرض سيطرته على المعارضة و ينفرد بحكم الأندلس لتبدأ مرحلة جديدة في عهد الخلافة الاموية و هي حكم الأسرة العامرية ، فمن هو المنصور بن أبي عامر ؟ وهل كان للبربر دور في نجاحه ؟.

أولاً: من هو المنصور بن أبي عامر :

هو أبو عامر محمد بن أبي حفص عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد المالك المعافري ، من أسرة عربية تنتسب الى قبائل معافر اليمنية الحميرية ، كان جده من أوائل الداخلين الى الأندلس مع طارق بن زياد و نزل معه الجزيرة الخضراء ، كان والده من أهل الدين و الزهد في الدنيا ابتعد عن الاشتغال بالسياسة و الوظائف الإدارية و الحكومية و كرس حياته لطلب العلم و العبادة ، أما أمه تدعى بريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي تنتمي هي الأخرى الى أسرة عربية عريقة في قرطبة تعرف ببني برطال⁽⁵⁾.

ولد محمد بن أبي عامر بقرية طرش التي استقر بها أجداده سنة 328هـ/ 940م و بها تعلم و درس المبادئ الأساسية، ثم رحل الى قرطبة و هو شاب طالبا للعلم حيث درس الأدب و الفقه و الحديث و من العلماء الذين درس عليهم أبي علي القالي و أبي بكر القرشي و المؤرخ أبي بكر بن القوطية .

لقد كان منذ حداثته طموحا ذا هممة عالية ، يتوقع لنفسه المناصب العليا ، وقد أورد عدد من المؤرخين بعض القصص عن تنبأ فيها ابن أبي عامر بالحكم ، و أول عمل بدأ به هو فتح دكان قرب قصر السلطان ليكتب العرائض و الشكاوي للناس فظهرت براعته و ذكائه و ذاع صيته ، فأعجبت به صبح زوجة الخليفة المستنصر و استخدمته لإدارة املاكها فأظهر كفاءة كبيرة في عمله فتوسطت له لدى الخليفة لترقيته ليصبح وكيل لولي العهد عبد الرحمان ، ثم ولاه أمانة دار السكة و قضاء بعض النواحي ثم عهد له بالإشراف على أموال الزكاة و المواريث في إشبيلية ثم صاحب الشرطة ، وعند وفاة ولي العهد عبد الرحمان صار مدير أملاك الأمير هشام الذي سيصبح خليفة⁽⁶⁾.

وهكذا فيمدة قليلة و بفضل ذكائه و مواهبه و بفضل ما كانت تمدّه به صبح أم هشام ترقى في سلم الوظائف ، فبعد جلوس هشام الثاني على عرش الخلافة أمر بتقليد وزير أبيه الأقرب جعفر بن عثمان المصحفي منصب الوزارة، و في الوقت نفسه أمر بترقية محمد بن أبي عامر الى منصب الوزارة و هنا تبدأ حياته كرجل سياسي و إداري كبير في الدولة .

وجد بن أبي عامر طريقا شاقا أممه للوصول الى أهدافه ، ومن ابرز تلك العقبات صقالبة القصر هؤلاء الذين وقفوا ضد الأمير هشام و طلبوا بتنحيته لصغر سنه و تولية المغيرة بن عبد الرحمان الناصر . ولهذا كان على محمد بن أبي عامر العمل على تصفيتهم ، فقرر ضربهم ببعضهم بعض معتمدا على التفرقة بين الصقالبة و الحاجب المصحفي ، هذا الأخير قتل منهم الكثير و نفى البعض منهم و بالتالي ضعف صف صقالبة القصر ، ومن جهة أخرى قام بن أبي عامر باستمالة البعض منهم الى جانبه كما استمال البربر فاتخذ منهم حرسا خاصا به و استعملهم في قهر أعدائه⁽⁷⁾ .

بعد التخلص من الصقالبة كان لابد من التخلص من الحاجب المصحفي الذي لا يزال الرجل القوي و المهيمن على السلطة ، و من أجل ذلك اقترب المنصور من غالب بن عبد الرحمن قائد الجيش و أمير الثغور الذي كانت له مكانة هامة في الدولة ، فتزوج المنصور من ابنته ، ونتيجة هذه المصاهرة أصبح ذلك الجيش في يده ، ثم نسب الى المصحفي تهما كثيرة مما دفع بالخليفة الى عزله ثم سجنه و قتله سنة 36 هـ ، و بهذا لم يبق أمام ابن أبي عامر الا القائد غالب ، ورغم المصاهرة بينهما الا أن المنصور استخدم قائدا اخر و هو جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي الذي كان من قادة البربر في المغرب ، و بالتعاون مع جند الأندلس تمكن من القضاء على غالب بن عبد الرحمان ، وبعد ان تخلص من هذا الفارس توجه الى القائد بن حمدون وقضى عليه باستخدام بعض جنوده ، و حتى السيدة صبح أم هشام التي أوصلته الى هذا المنصب لم تسلم من بطشه حيث وضعها تحت الإقامة و أحاط قصرها بالجواسيس وهكذا تخلص ابن أبي عامر من خصومه وفق مبدأ الغاية تبرر الوسيلة⁽⁸⁾ .

ثانيا: سياسة المنصور الخارجية

و بعد الانتصار على منافسيه تلقب بن أبي عامر بالمنصور ، و كتب اسمه على النقود و أصبح يدعوا له على المنابر بعد الدعاء للخليفة هشام المؤيد الذي لم يبق له من الخلافة الا اسمها ، و بذلك تفرغ المنصور لإدارة شؤون الأندلس ، بعد أن أصبح الخليفة محجورا مهجورا لا يراه الخواص ولا العوام من الناس . وهكذا استأثر ابن أبي عامر بالسلطة و وطد أركان دولته الناشئة على أكتاف من تخلص منهم ورغم انشغاله بتنظيم أمور الدولة الا أنه لم ينصرف عن الجهاد و قيادة الحملات الصيفية و الشتوية في المناطق الشمالية حيث الممالك المسيحية ، فقد كان يقود جيوشه بنفسه ، و قد بلغت هذه الغزوات حسب بعض المصادر سبعا و خمسين غزوة على مدى فترة حكمه التي تجاوزت خمس و عشرين سنة و قد انتصر في كل هذه الغزوات ، و في جهات مختلفة و أنزل بتلك الأقاليم خسائر كبيرة ، و بهذه السياسة اكتسب المنصور شعبية كبيرة داخل الأندلس ، و زادت عزة و شرفا و هيبة سواء في نظر رعيته أو أعدائه⁽⁹⁾ .

أما في بلاد المغرب فقد سار على نفس سياسة الناصر ابن المستنصر و التي تقوم على ضرورة الاحتفاظ بالعدوة المغربية تحت السيطرة الأندلسية ليكون خط دفاعي أمامي في مواجهة الخطر الفاطمي الشيعي ، و قد نجح المنصور في ذلك نجاحا كبيرا لم يبلغه أحد من قبل ، اذ دخل في الطاعة الأموية كل بلاد المغرب الممتدة من سجلماسة جنوبا الى تلمسان و تاهرت شرقا .

لقد واجهت المنصور عدة حركات استقلالية في بلاد المغرب و كان الهدف منها التخلص من السيطرة الأموية ، و أول هذه الثورات كانت بقيادة الأمير بلكين بن زيري الصنهاجي حليف الفاطميين حيث هاجم سبتة

سنة 369هـ / 979م ، إلا أن المنصور تمكن من استعادتها ، كما قامت ثورة أخرى بقيادة الحسن بن حنون الزعيم الإدريسي بتحريض من الخليفة الفاطمي العزيز بالله على استرداد ملك أبائه الأدارسة ، بالتعاون مع العلويين وبعض القبائل الزناتية إلا أنه لم يستطيع الصمود أمام جيوش المنصور ، ورغم استسلامه وطلبه للأمان إلا أن المنصور نقله إلى الأندلس ثم أمر بقتله وكان لهذا الحدث تأثير على المسار التاريخي للمغرب الأقصى حيث انهارت الدعوة الإدريسية وتفرق أنصارها⁽¹⁰⁾ .

أما الخطر الثالث فكان من الزعيم المغربي زيري بن عطية المغراوي الزناتي الذي ساعد المنصور على اخماد ثورة العلويين ، فكافأه المنصور بأن عهد له حكم بلاد المغرب ، ولكن رغبته في الاستقلال عن المنصور خاصة عندما منحه المنصور لقب الوزارة بعدما كان يلقب بالأمرير ، وهذا ما جعله يثور على بن أبي عامر ، فطرد عمال وولات المنصور من جميع الأقاليم ما عد طنجة وسبتة ومليلية فاضطر المنصور إلى إرسال جيش بقيادة مملوكه واضح الصقلي ثم جيش ثاني بقيادة ابنه المظفر عبد الملك ، وبعد مقتل زيري بن عطية عادت بلاد المغرب إلى السيطرة الأندلسية⁽¹¹⁾ .

أما عن إنجازات المنصور فرغم أنه لم يكن صاحب السلطان الشرعي لدولة الإسلام في الأندلس إلا أن هذا لم يمنع من اهتمامه بجوانب متعددة لخدمة مصلحة الدولة ، ومن أبرز أعماله اهتمامه بالجيش وجعله وحدة متماسكة خاضعة لقيادته ، كما اهتم بالقضاء وأظهر صرامة شديدة في تنفيذ العدل ومنع الظلم ، ومن جهة أخرى فقد اهتم بالجانب المعماري حيث بنى مدينة الزاهرة سنة 370هـ / 980م ، في شمال شرق قرطبة وقام بتوسعة جديدة بجامع قرطبة .

لقد تمكن هذا القائد العسكري والداهية من تحقيق أهدافه السياسية والعسكرية غيرت التطور السياسي في الأندلس من خلال نقل السلطة من آل مروان إلى العامرية ، ومن أبرز محطات هذا التحول⁽¹²⁾ :

- الانتصار على أقوى منافس له وهو القائد غالب ثم سعى نفسه بالمنصور تمهيداً للوصول إلى التربع على عرش الأندلس ، ومن أجل هذا ضحى بكل غال ونفيس .

- المحطة الثانية هي تقديم ابنه عبد الملك لولاية العرش من بعده ، وتنازل له عن عدة وظائف منها خطة الحجابة والوزارة ، حيث كان يهدف من خلال هذا التصرف إلى فرض بني عامر على المشهد السياسي في الأندلس .

- أما المحطة الثالثة فهي الحاسمة وتمثل نهاية المسيرة نحو الهيمنة على السلطة ، وهي أنه جعل نفسه في مصاف الملوك والخلفاء والأمراء فتسمى بأسمائهم ، فاطلق على نفسه لقب الملك الكريم و اضاف له لقب المنصور وكان ذلك سنة 386هـ / 996م ، فكانت هذه المحطات تغير جذري في سياسة المنصور الذي أراد من خلالها نزع الشرعية من الخليفة والعمل على تأسيس دولة جديدة محل الدولة الأموية .

لقد أنهى الحاجب المنصور عهده الحافل بالمعرك والحروب مسجلاً للأندلس مفخرة كبيرة وناشراً للذعر والهلع في قلوب النصارى في الشمال ومضيفاً له الهيبة والتقدير طيلة ستة وعشرين عاماً من الحكم ، وتوفي رحمة الله عليه في 27 رمضان 392هـ / 10 أوت 1002م ودفن ساحة قصر مدينة سالم ، وقد كتب على قبره ، مايلي⁽¹³⁾ :

أثارة تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعين تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا ولا يحيي الثغور سواه

و بموت المنصور تنفس ملوك اسبانيا الصعداء ، وقد تولي ابنه المظفر الحجابة من بعده وتمكن من كسب قلوب الرعية بعد أن خفض الضرائب و اظهر العدل و احب الفقهاء و العلماء ، وقد سار على نهج أبيه مع بلاد المغرب و مع النصاري ، و توفي المظفر سنة 399 هـ / 1008 م ، و خلفه اخوه عبد الرحمان الذي لقب بشنجل و قد اقر هشام المؤيد بذلك ، و قد كان ضعيف الشخصية مغرورا بنفسه ، تلقب بالمأمون ناصر الدولة ، و نظرا لاعتماده على البربر و الصقالبة فقد كثرت المؤامرات ضده ، و قتل على يد أحد أحفاد عبد الرحمان الناصر ، و بمقتله ينتهي حكم الأسرة العامرية في الأندلس .

ثالثا: علاقة المنصور مع البربر .

إن السياسة القوية و العنيفة التي اتبها المنصور للوصول الى أهدافه كانت تتطلب الاعتماد على رجال أقوياء و شجعان ، و قد كان معظم هؤلاء من المغاربة فقد استقدم الكثير من أهل المغرب و كون منهم جيشه الجديد ، و اصبحت لهم الدعامة الأولى في بناء دولته ، و قد تكون هذا الجيش من قبائل زناتة و مكناسة و بني برزال و صنهاجة و زداجة و غيرهم من أبناء المغرب الذين أسرعوا الى الانخراط في صفوف جيشه ، خاصة عندما علموا بجوده و إحسانه إليهم ، و كان من الذين عبروا المضيق الى الأندلس أيام المنصور العامري تلك الدفعة من المتطوعين التي اجتازت مع جعفر بن علي بن حمدون سنة 367 هـ 987 م⁽¹⁴⁾ . و كان هدف المنصور من الاعتماد على البربر هو رغبته في إبعاد العنصر العربي الذي كان بشرق الأندلس مثل بني هاشم و بني هارون و بني سليم و في اشبيلية بنو الحجاج الذين اعتبروا اشبيلية ملكا لهم ، حيث قدم المنصور رجال البربر و آخر زعماء العرب و أقصاهم من مناصبهم . و من أولى مظاهر اعتماد المنصور على البربر ذلك الدعم الذي قدمه البربر للمنصور منذ البداية ، فعندما كان يزيج خصومه من طريقه اتخذ من بربر حرسا خاصا استخدمه في قهر أعداءه ، و عندما أراد المنصور التخلص من صهره غالب بن عبد الرحمان استخدم قائد بربري و هو جعفر بن علي بن حمدون .

و من مظاهر الاعتماد على البربر هي كلة الوضع العسكري ، فقد كان الجيش قبل المنصور يتكون من عساكر العاصمة و من الحرس النظامي الذي يضم العناصر الصقلبية ثم جيش إقطاعي تمثله القبائل العربية ، التي وزعت على المدن الأندلسية ، و قد لاحظ ابن أبي عامر أن هذا النظام يمكن أن يخلق الصراعات و الفتن بين عناصر الجيش ، خاصة وأن عرب الأندلس كانوا يتميزون بالعمائر و القبائل و البطون و الأفخاذ إلى أن قطع ذلك المنصور ، و ركز على العنصر البربري نظرا لخصاله الخشنة و شجاعته النادرة ، فكثر لهم العطاء لكسب و لائهم و يقلل من تعصبهم و يقضي على النزعة الإقطاعية ، و يجعل الكفاءة هي المعيار الأساسي للترقية ، و على هذا الأساس رتب المنصور جيشه ، فاستدعى البربر الأمازيغ من زناتة و بني يفرن و صنهاجة و مغراوة و غيرهم ، فقدم البربر و أخرج رجال العرب و أسقطهم من مراتبهم⁽¹⁵⁾ .

و كان الهدف هو الحد من سلطة العنصر العربي في الجيش ، و قد استطاع المنصور من وراء هذا النظام الجديد إحراز العديد من الانتصارات الحربية في غزواته المستمرة على بلاد النصاري ، كما تمكن من بسط نفوذه و سلطانه على الجيش .

وكانت سياسة المنصور مع البربر تعتمد على الاحسان و البذل المتواصل ، حيث كان الرجل من البربر يأتي فقيرا فيصبح من الأغنياء يركب الجواد العتيق ويسكن قصر لم يتصور له في منامه ، فصاروا أكثر جند المنصور و بطانته وهم اظهر الجند نعمة و أعلاهم منزلة⁽¹⁶⁾ ، ومن خلال هذا السخاء فقد نال المنصور اخلاص البربر و انصياعهم لأوامره ، لقد عرف المنصور كيف يجتذب قلوب القائل الزناتية و الصنهاجية وغيرها من القبائل البربرية بالعدل و الرفق و اللين و تقديم الأجور السخية ، كما منح لموك زناتة الجواز فور وصولهم الى الأندلس ، واعطاهم حرية اختيار مكان المكوث في ديوانه فأحبوه و قدموا له الحماية⁽¹⁷⁾ .

وما يؤكد استخدام المنصور للبربر و معرفته التامة بطبائعهم و خصال الشراة و الطمع فيهم خاصة و أنه قد عاش في بلادهم و بين قبائلهم عدة أعوام أيام الحكم المستنصر بالله ، و عليه فعندما تحرك بلكين بن زيري الصنهاجي في حملته على المغرب الأقصى و اجفل قبائل زناتة التي احتشدت في مدينة سبة قاعدة الخلافة الأموية في بلاد المغرب ، استغل المنصور هذه الحادثة و بعث الى رجال زناتة يدعوهم الى القدوم إليه ، بعد ان أشار عليه بعض أعوانه كما ذكر ابن عذارى "قد أمكنك الله من اصطناع فرسان زناتة واعتقاد المنة عليهم فأرسل إليهم يأتوك سراحا فليجد احسانك إليهم مكانا"⁽¹⁸⁾ . وهكذا فقد استغل المنصور الخلافات بين القبائل لخدمة مصالحه و تجنيد ما أمكن من الأمازيغ في صفوف جيشه . أما ابن خلدون فيشير الى حادثة أخرى تتعلق بطريقة استعطاف المنصور للقبائل الأمازيغية و استخدامها لخدمة أهدافه . فعندما انتقل زواوي بن مناد الصنهاجي الى الأندلس مع عائلته و بني أخيه و حاشيته سنة 391هـ / 1001م و نزل على المنصور بن أبي عامر صاحب الدولة و كافل الخلافة الأموية فاحسن استقبالهم و أكرم حضورهم و اصطنعهم لنفسه و اتخذهم بطانة لدولته و أوليائه على ما يعول عليه من قهر الدولة و التغلب على الخلافة ، و نظمهم في طبقات زناتة و سائر رجالات البربر ، ثم يقول و استغلظ أمر صنهاجة بالأندلس و استفحلت إمارتهم و حملوا دولة المنصور و ولديه المظفر و الناصر من بعده على كاهلهم⁽¹⁹⁾ .

لقد عرف المنصور كيف يستميل البربر في خدمة الدولة ، فقد استمال بني برزال إليه و يحول ولائهم الذي كان من قبل للمصحفي دون أن يدعوهم مباشرة الى ذلك بسبب طريقة تعامله المالية و تقريههم منه و تودده إليهم فأحبوه و انقادوا إليهم و فضلوه على من سواه ، خاصة و أن بلاد المغرب كانت تعيش الصراعات على السلطة و عدم الاستقرار السياسي حتى داخل القبيلة الواحدة .

و يظهر من خلال النصوص التاريخية أن بني برزال قد ساندوا المنصور بن أبي عامر حتى قبل أن يسيطر على مقاليد السلطة ، فيرى ابن خلدون ان المنصور لما أراد الاستبداد على الخليفة هشام و توقع النكير من رجالات الدولة و موالي الحكم استكثر من بني برزال و غيرهم من البربر و أفاض في الإحسان إليهم فساندوه في إسقاط رجال الدولة و تثبيت أركان سلطانه ، ثم قتل صاحبهم جعفر بن يحيى خشية عصبية بهم و استمالهم من بعده ، و قد جعل أحد رجالهم وليا على قرمونة و ظل على رأسها طيلة الفترة العامرية⁽²⁰⁾ .

و هكذا و بحسن سياسية المنصور بن أبي عامر و ذكائه تمكن من كسب ود البربر و استخدمهم في جيشه ، فكان لهم الفضل في نجاح بن أبي عامر في السيطرة على الحكم من جهة و من جهة أخرى فقد خاض بهم اثنان و خمسين غزوة لم يهزم ولا في واحدة منها ، و بفضلهم أيضا أعاد المنصور السيادة للخلافة الأموية على بلاد المغرب خاصة الأقصى و الأوسط .

و من نتائج هذه السياسة و انعكاساتها هي أن المنصور أعطى أهمية للبربر و أن الطريق الذي سلكه كان يقضي بالتخلص من السيطرة العربية بواسطة قوة أكبر منها و هي قوة البربر . ظل المنصور يستكثر و يزيّد من العنصر البربري و يوزعهم في صفوف جيشه ليكون بهم قاعدة صلبة لمواجهة أعدائه ، و قد ذكر ابن الخطيب أن عددهم فاق الخمسة آلاف مقاتل .

لقد تمكن المنصور بفضل سياسية الاعتماد على البربر من تشكيل نظام عسكري يجعل الجيش فرقا متعددة يتألف كل فرقة من عناصر مختلفة كالعرب والبربر والصقالبة وكل جندي له راتباً يتقاضاه شهرياً من دولته حسب مكانته في الجيش ، و بالتالي تمكن من اجتثاث العصبية القبلية ، أي جعل من الجيش الأندلسي جيشاً قومياً ، ثم أطلق على الجيش المغربي الجديد اسم الحضرة أي جند العاصمة يديره بنفسه ، والقسم الثاني يسمى جيش الثغور و يديره غالب .

و من الوظائف التي تولاهها البربر في عهد المنصور ، منصب قاضي الجماعة ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان وهو أول من اتخذ لقب قاضي القضاة بالأندلس ، كان عالماً بمذهب مالك⁽²¹⁾ . أما وظيفة الولاية فقد تولاه إسحاق من قبيلة بني برزال حيث ولاه المنصور قرمونة و أعمالها نظير خدمات بني برزال الجلييلة .

لقد شهد عهد المنصور تطورا و ازدهارا في الجانب العلمي و الأدبي حيث كان مثل حكام بني أمية محبا للعلم مشجعا للعلماء ، و هذا ما جعل أهل المغرب يرتحلون الى الأندلس لطلب العلم ، ومن البربر الذين نبغوا في الميدان العلمي ، أحمد بن خلوف المسيلي ، و أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، و أبو القاسم خلف بن سليمان بن عمرو الصنهاجي المتوفى سنة 378 هـ 988 م⁽²²⁾ ، و من الأدباء البربر في عصر المنصور ، أبو عمر أحمد بن محمد بن العاص القسطلبي الصنهاجي كان أديبا و شاعرا توفي سنة 421 هـ 1030 م .

الخاتمة:

لقد تمكن المنصور بن أبي عامر من السيطرة على السلطة الأموية بفضل ذكائه و حسن سياسته مستغلا في ذلك كل الظروف المتاحة أمامه ، معتمدا على فكرة الغاية تبرر الوسيلة و قام بحجر الخليفة و جرده من كل شيء الا الاسم ، و من جهة أخرى فقد سار على نهج خلفاء بني أمية في حماية الأندلس و الدفاع عن دولته ، و من أجل ذلك فقد استمال إليه البربر من بلاد المغرب و استخدمهم في الجيش ، و قد كان لهم دورا بارزا في نجاح ابن أبي عامر عسكريا و سياسيا .

الهوامش

1. لسان الدين بن الخطيب ، أعلام الاعلام ، تح ليفي بروفنسال مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ص 9.
2. ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تح ج س كولان و ليفي بروفنسال ، دار الثقافة بيروت 1980م ، ج 2 ص 93.
3. شبارو محمد عصام ، الأندلس من الفتح العربي المرصود الى الفردوس المفقود ، دار النهضة العربية بيروت 2002م ص 161.
4. عبد الرحمن بن خلدون ، ديوان العبرو المبتدأ الخبر ج 4 دار الفكر بيروت 2000م ص 185.
5. ابن الأبار ، الحلة السيرة ج 1 تح حسين مؤنس ، دار المعارف القاهرة 1985م ص 275. الضبي أحمد بن عميرة ، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس ، تح إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب بيروت 1989م ص 153.
6. ابن بسم ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، تح احسان عباس ، دار الثقافة بيروت 1970م ج 1 ص 60 - عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الأول القسم 2 مكتبة الغانجي 1990م ص 534.
7. عصام الدين عبدالرؤوف ، تاريخ المغرب و الأندلس ، مكتبة نهضة الشرق القاهرة 1990م ص 216.
8. ابن خلدون العبر ، المصدر السابق ج 4 ص 189.
9. المقرئ أحمد بن محمد ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تح احسان عباس ، ج 1 دار صادر بيروت ، ص 398.
10. عبد الله استيتو ، الحاجب المنصور العامري بين الأسطورة و التاريخ مطبعة بني ازناسن المغرب 2015م ص 83.
11. أبو العباس الناصري ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تح جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج 1 دار الكتاب الدار البيضاء 1954م ص 135.
12. عبد الله عنان ، المرجع السابق ، ص 542.
13. ابن الخطيب ، الاعلام المصدر السابق ، ص 82.
14. ابن عذارى ، البيان ، المصدر السابق ، ص 279.
15. المقرئ ، المصدر السابق ص 379.
16. ابن عذارى ، المصدر السابق ج 2 ص 279.
17. أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ، دار النهضة العربية بيروت ، ص 234.
18. ابن عذارى ، المصدر السابق ج 2 ص 293.
19. ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 6 ص 138.
20. ابن خلدون نفسه ج 7 ، ص 73.
21. الحميدي ، جذوة المقتبس في ولاة الأندلس ، ج 1 الدار المصرية للتأليف 1966م ص 129.
22. ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، تح روجيه عبد الرحمان السويقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1997م ص 118.